

المسافة والتجاوز:

هناك نماذج تنكر وجود أية مسافة أو ثغرات أو ثنائيات، ولذا فهي تنكر إمكانية التجاوز. وكل هذه المصطلحات تتطلب توضيحاً. فالمنظومات المعرفية التي تدور في إطار المرجعية المتجاوزة لعالم المادة (مثل العقائد التوحيدية) تحتفظ بالحدود الفاصلة بين الخالق العليّ المتجاوز وبين مخلوقاته، فهو مركز النموذج المفارق والمتجاوز له. ولذا، تظل المسافة بين الخالق والمخلوق قائمة، لا يمكن اختزالها مهما كانت درجة اقتراب المؤمن من الإله. ومن هنا، لا يمكن في الإطار التوحيدي أن «يصل» المتصوف إلى الالتصاق بالإله أو الاتحاد به أو الفناء فيه، فثمة مسافة جوهرية ثابتة. ولذا، فإنه حتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم «يصل»، بل ظلَّ في أقصى حالات الاقتراب قاب قوسين أو أدنى. وهذا ما سماه أحد الفقهاء «البيئية»، أي وجود حيزٍ «بين» الخالق والمخلوق.

ووجود الحدود بين الخالق والمخلوق يعني أن للمخلوق حدوده التي لا يتجاوزها، ولكنها تعني أيضاً أنه هوية محددة وجوهر مستقل، ومن ثمَّ فهو كائن حر مستقل مسئول. والمسافة بين الخالق والمخلوق يمكن أن تصبح ثغرة أو هوةً إن ابتعد المخلوق عن خالقه، وانعزل عنه، ونسي خصائصه (جانبه وأصله الرباني) التي تميزه عن بقية الكائنات. ولكن إن حاول الإنسان التفاعل مع الإله، وتذكر أصوله وأبعاده الربانية التي تميزه من الكائنات الطبيعية، فإن المسافة تتحول إلى مجال للتفاعل ويصبح الإنسان نفسه كائناً مستخلفاً في الأرض يشغل المركز، وذلك بسبب القبس الإلهي داخله وبسبب تفاعله مع الخالق. فالعلاقة بين الخالق والمخلوق هي علاقة اتصال وانفصال.

أما في المنظومات التي تدور في إطار المرجعية الكامنة في عالم الطبيعة/المادة (مثل النظم الحلولية التي سنعرض لها فيما بعد)، يحاول المخلوق أن يضيق المسافة بينه وبين الخالق تدريجياً، إلى أن يصل الإنسان إلى الإله ويلتصق به، ثم يتوحد معه ويفنى فيه. وبذا يصل إلى مرحلة وحدّة الوجود، حين يصبح المركز كامناً في